السنة الخامسة والثلاثون وست مئة

فيها توفي الأشرف والكامل، وولي الجَوَاد دمشق.

وفيها اختلفت الخُوارَزْمية على الصَّالح أيوب [بن الكامل][1]، وأرادوا القَبْضَ عليه، وكان على الفرات، فهرب إلى سِنْجار، وترك خزائنه وأثقاله، وعَبَرَ الفرات من عند دير يسير، فنهبوا الجميع، ولما صار في سِنْجار سار إليه بدر الدين لؤلؤ، فحصره في ذي القَعْدة، فأرسل [الصالح][1] إلى لؤلؤ يسأله الصُّلْح، فقال: لا بُدَّ من حَمْله إلى بغداد في قفص، وكان لؤلؤ والمشارقة يكرهون مجاورته، وينسبونه إلى التكبر والتجبر والظُّلْم، فألجأت الضَّرورة إلى أن بَعَثَ الصَّالح إلى الخُوارَزْمية وهم على حَرَّان يستنجدهم، فألجأت الضرورة إلى أن بَعَثَ الصَّالح إليهم بدر الدين قاضي سنجار، وحَطَّه من السُّور في حبل، فشرط للخوارزمية كل ما أرادوا، فساقوا جرائد من حَرَّان، فكبسوا بدر الدين لؤلؤ على سنجار، فنجا وحده على فرسٍ سابق، ونهبوا أمواله وخزائنه، والخيل والخيام، وجميع ما كان في عسكره، حتى بِيْعت الدَّواة المفضضة التي تساوي مئتي درهم بخمسة دراهم، والطِّسْت والإبريق يساوي ثلاث مئة دِرْهم بِيْعَ بعشرين درهماً، واقتسموا الكُوسات والنقارات من ذلك اليوم، واستغنَوْا إلى الأبد.

وفيها خَطَبَ الكمال عمر بن أحمد بن هبة الله بن طلحة النَّصِيبي بجامع دمشق في شعبان بعد وفاة الدَّوْلعي.

وفيها توفي

خُطْلُبا بن عبد الله، صارم الدِّين التِّبْنيني[2]

المجاهد، المرابط، الدَّيِّن، الصالح، [العاقل][1]، توفي يوم الاثنين، ثالث شعبان، ودفن في تُرْبته التي أنشأها بقاسيون، ودَفَنَ بها شركس، [وهو الذي أنشأ هذه التربة، ووقف عليها الأوقاف][1]، وكان كثيرَ الصَّدقات والمعروف والصِّلات،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٣٥هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣٤٧، وذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين»: ١/ ٢٣٢، ٣٠٨.

عاقلاً، طاهرَ اللِّسان، غزير الفضل [والإحسان][1]، أقام في الثغور مُدَّة سنين يجاهد العدو، ويحفظ البلاد على المُسْلمين.

محمد بن أبي بكر بن أيوب، الملك الكامل[2]

ولد سنة ثلاثٍ وسبعين وخمس مئة[3]، وكان أكبر أولاد العادل بعد ممدود، وكان العادل قد عهد إليه لما رأى من ثباته وعقله وسَدَاده [في إصداره وإيراده][1]، وقد ذكرنا سيرته في السِّنين، وكان شجاعاً، ذكياً [مهاباً][1]، فطناً، يحبُّ العلماء والأماثل، ويلقي عليهم المُشْكلات [من المسائل][1]، وتكلَّم على «صحيح مسلم» بكلامٍ مليح، ولفظ فصيح، وثبت بين يدي العدو لما نَزَلَ الفرنج على دمياط مدة، ما أبقى قلماً في خزائنه وذخائره.

وأما عدله فإليه المنتهى، [وفَضْله هو المشتهى][1]، وبَلَغَ من عَدْله أَنَّ بعض الركبدارية استغاث إليه يوماً، وقال: استخدمني أُستاذي ستة أشهر بغير جامكية، فأحضر أُستاذه، وأنزله من فرسه، وخلَّعه ثيابه، وألبسها الركبدار، وأركبه الفرس، وألبس الجندي ثياب الركبدار، وقال له: احمل مداسه، واخدمه ستة أشهر كما خدمك.

وكان إذا سافر لا يتجاسر أحدٌ أن يأخذ من فلاحٍ علاقة شعير، ولا دجاجة [وإن دعت إلى ذلك الحاجة، ولقد بلغني أنه][1] شنق جماعةً من الأجناد على آمِد؛ لكونهم أخذوا أكيال شعير لشخصٍ.

وكانت الطُّرق في أيامه آمنة بحيث يسير الراكب وحده، ولا يحتاج إلى حمل عُدَّة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة»: ٣/ ٤٨٥، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤٣-٤٤، وفيه تتمة مصادر ترجمته.
قال إبراهيم عفا الله عنه: وكان الأَوْلى أن يترجم للأشرف قبل الكامل، لأن وفاة الأشرف كانت في محرم، ووفاة الكامل في رجب من ذلك العام.

(٣) ذكر المنذري في «التكملة»: ٣/ ٤٨٥، والذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٢٧، و«تاريخ الإسلام»: (وفيات سنة ٦٣٥هـ) أن ولادته سنة ست وسبعين وخمس مئة. وعقب على ذلك ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٢٢٨، فقال: وعندي أن أبا المظفر (يعني سبط ابن الجوزي) أثبت لصحبته بأخيه المعظم عيسى، وكونه أيضاً عصري الملك الكامل هذا، والله أعلم.

[وجلست عنده بدار الوزارة في القاهرة سنة تسع وست مئة][1].

وقال فخر الدين بن شيخ الشيوخ: لما حَضَرَ الفرنج دمياط صَعِدَ الكاملُ على مكانٍ عالٍ، وقال لي: ما ترى ما أكثر الفرنج! مالنا بهم طاقة. [قال][1]: فقلتُ: أعوذ بالله من هذا الكلام. قال: ولِمَ؟ قلتُ: لأنَّ السَّعد موكل بالمنطق. فأخذتِ الفرنجُ دمياط بعد قليل، فلما طال الحصار صَعِدَ يوماً على مكانٍ عالٍ، وقال: يا فلان، ترى الفرنج ما أقلهم! والله ما هم شيء. فقلتُ: أخذْتَهُمْ والله. قال: وكيف؟ قلتُ: قلتَ في يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فأخذوا دمياط، وقد قلتَ اليوم: كذا، فالملوك منطَّقون بخيرٍ وشر. فأخذ دمياط بعد قليل.

وكان الملك الأشرف قد توفي في أول هذه السنة، واستولى الصَّالح إسماعيل على دمشق، وجاء الكامل، فحصره، وكان [خالي][1] محيي الدِّين بن الجوزي بدمشق، فدخل بينهما في الصُّلْح، وأعطاه الكامل بَعْلَبَكَّ مضافةً إلى بُصْرى بعد أن حوصرت دمشق حصاراً شديداً، وقُتِلَ عليها جماعة، وزحفَ النَّاصر داود بعسكره من باب توما، وتعلقوا بالنُّقوب، ولم يبق إلا أخذها، فأرسل الكاملُ فخر الدِّين بنَ شيخ الشيوخ، فرحَّله إلى أرض برزة، وكان الصَّالح قد أرسل إلى الكامل يقول: قد بلغني أنك تعطيها للنَّاصر، وأنتَ أحقُّ. وسلَّمها إلى الكامل في أواخر جُمادى الأولى، فأقام بها إلى ثاني عشرين رجب، فتوفي في بيتٍ صغير بدار الفِضَّة في مكان مات صلاح الدين، ولم يعلم أحدٌ بموته، ولا حضره أحدٌ من شِدَّة هيبته، وإنما دخلوا عليه، فوجدوه مَيْتاً، وكان مرضه نيفاً وعشرين يوماً بالإسهال والسُّعال، ونزلةٍ في حَلْقه، ونِقْرس في رِجْله، [ودفن بالقلعة بعدما صلوا عليه][1]، وأظهروا موته يوم الجمعة، ولم يحزن عليه أحد، ولا لبسوا ثياب الحُزْن، ولحق النَّاس بهتة، واتفقوا في الحلقة في ذلك النَّهار باتفاق الجَوَاد وسيف الدين بن قليج، والخدام، وعز الدين أيبك، وعماد الدين بن الشيخ، وسنذكر القصة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

اجتمع الأمراء [وفيهم سيف الدين بن قليج، وعز الدين أيبك، والركن الهيجاوي،][1] وعماد الدين وفخر الدين ابنا الشيخ، وتشاوروا، وانفصلوا على غير شيء، وكان النَّاصر داود بدار سامة، [فجاءه][1] الركن الهيجاوي[2] في الليل، وبيَّن له وجه الصَّواب، وأرسل إليه عِزُّ الدِّين أيبك يقول: أخرجِ المال، وفَرِّقْه في مماليك أبيك، والعوامُ معك وتملك البلد، ويبقوا في القلعة محصورين. فما أنفق، وأصبحوا يوم الجمعة في القلعة، فحضر مَنْ سَمَّينا، وذكروا النَّاصر والجَوَاد، وكان أضرَّ ما على النَّاصر عماد الدين بن الشيخ، لأَنَّه كان يجري في مجلس الكامل مباحثات، فيخطئه فيها ويستجهله، فبقي في قلبه، وكان فخر الدين يميل إلى النَّاصر، فأشار عمادُ الدين بالجواد، ووافقوه، وأرسلوا الهيجاوي يوم الجمعة إلى النَّاصر، وهو في دار سامة، فدخل عليه، وقال له: أيش قعودك في بلد القَوْم؟ قُمْ واخرج. فقام، وركب وجميع مَنْ في دمشق من باب دار سامة إلى القلعة، وما شك أحدٌ أَنَّ النَّاصر طالع إلى القلعة، وساق، فلما تعدَّى مدرسة العماد الكاتب، وخرج من باب الزُّقاق عَرَّج إلى باب الفرج، فصاحت العامة: لا لا لا. وانقلبتْ دمشق، وخرج النَّاصر من باب الفرج إلى القابون، ووَقَعَ بهاء الدِّين بن بركيشوا وغِلْمانه في النَّاس بالدَّبابيس، فأنكوا فيهم، فهربوا.

وأما الجَوَاد، فإنه فتح الخزائن، وأخرج المال، [فبلغني أنه][1] فَرَّق ستة آلاف ألف دينار، وخلع خمسة آلاف خِلْعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطئ، فأقام النَّاصر بالقابون أياماً، وعزموا على قَبْضه، فرحل، وبات بقصر أُم حكيم، وخرج خَلْفه أيبك الأشرفي ليمسكه، وعَرَفَ عمادُ الدين بن موسك، فبعث إليه في السِّرِّ، فسار في الليل إلى عجلون، ووصل أيبك إلى قصر أم حكيم، وعاد إلى دمشق.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) في (ح) و(ش): «جاءه الهيجاوي والركين في الليل، وبينا له وجه الصواب»، والمثبت من «تاريخ الإسلام» للذهبي: (حوادث سنة ٦٣٥هـ).

ذِكْرُ ما جرى بين النَّاصر والجَوَاد:

سار النَّاصر من عجلون إلى غَزَّة، فاستولى على السَّاحل، فخرج إليه الجواد في عسكرِ مِصْر والشَّام، [فبلغني أنه][1] قال للأشرفية: كاتبوه وأطمعوه. فكاتبوه وأطمعوه، فاغترَّ بهم، وساق من غَزَّة في سبع مئة فارس إلى نابُلُس بأثقاله وخزائنه وأمواله، وكانت على سبع مئة جمل [على ما بلغني][1]، وترك العساكر مقطعة خلفه، وضرب دِهْليزه على سَبَسْطِيَة، والجواد على جيتين، فساقوا عليه، وأحاطوا به، فساق في نفرٍ يسير نحو نابُلُس، وأخذوا الجمال بأحمالها والخزائن والجواهر والجنائب، واستغنَوْا غِنى الأبد، وافتقر هو فقراً ما افتقره أحد، و[بلغني أن عماد الدين بن الشيخ][2] وقع بسَفَطٍ صغير، فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر، وفصوص ليس لها قيمة، فدخل على الجواد، وطلبه منه، فأعطاه إياه.

وهذه الأموال التي كانت على الجمال قالوا: هي التي جَهَّز بها المعظَّم دار مرشد ابنته لما زَوَّجها بالخُوارَزْمي، أخذها الناصر منها ظنًّا منه أنه يعوِّضها إذا فتح البلاد، [ففعل الله في ملكه ما أراد][1]، وسار النَّاصر لا يلوي على شيء إلى الكَرَك، [وكانوا قد أشاروا عليه في غزة أن يبعث الأموال والخزائن والأثقال إلى الكرك[1]] على الرَّوية، ويجمع عسكره، ويسير جريدةً، فإنْ ظَهَرَ عليهم وإلا سَلِمَتْ خزائنه وأمواله وأموال عسكره، فاغترَّ بمكاتبة الأشرفية، [ولله في خلقه أسرار خفية][1].

وحكي لي أَنَّ الكامل لما توفي اختلف أصحابه فيمن يولون، فقالوا لفخر الدِّين بن الشيخ: ما تقول في الجواد، فقد اتفق الأُمراء عليه؟ فقال: المصلحة أن نولي بعضَ الخُدَّام نيابةً عن ابنِ أُستاذنا العادل، متى شاء عزله، ومتى شاء أبقاه، ولا تولوا أحداً من بيت الملك، ما يقدر أحدٌ بعد ذلك عليه، ويحكم علينا. وبلغ الجواد، فجاءه، وقال: يا فخر الدين، أنا وأنت ربينا في خِدْمة الكامل، وبيننا خبز وملح، وأنا مملوكك. ووعده أَنْ يعطيه خبز مئة وخمسين فارساً وعشرة آلاف دينار، فقال: والله لا وافقت إلا على ما فيه مصلحة ابن أُستاذي. فلما يئس منه فَرَّق ضياع الشَّام على

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) في (ح): ووقع عماد الدين بن الشيخ بسفط...، والمثبت ما بين حاصرتين من (ش).

الأمراء، وخَلَعَ عليهم، وفرَّق الخزائن، وكان فيها تسع مئة ألف دينار، وتوجَّه فخر الدين إلى مِصْر ومعه جماعةٌ من الأمراء بعد أن تردَّد إلى النَّاصر بالقابون دفعات.

محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله ابن مَمِيْل[١]

أبو نَصْر، شمس الدين بن الشِّيْرازي.

ولد بدمشق سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة، وسمع الحديث الكثير، وناب في القضاء مدَّة سنين، ودرَّس بمدرسة ست الشَّام بالعوينة، وتوفي ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون في تربته، [وسمع من الحافظ ابن عساكر قطعة من التاريخ وغيره، وأبا يعلى حمزة بن علي الحُبُوبي، وأبا البركات الخضر بن شبل ويعرف بابن عبد، خطيب جامع دمشق، وأبا المعالي مسعود بن محمد ويلقب بالقطب النيسابوري، وخلقاً كثيراً][٢]، وكان إماماً، فقيهاً، عالماً، فاضلاً، كَيِّساً، لطيفاً، حَسَنَ الأخلاق، كريمَ الطِّباع، حميدَ الآثار، حُفَظَةً للحكايات الحِسان وأيام العرب، والأخبار والأشعار، رحمه الله.

محمد بن أبي الفَضْل[٣]

ابن زيد بن ياسين، الخطيب، الدَّوْلَعي، ويلقب بالجمال.

أقام خطيباً بعد موت عمِّه الدَّوْلَعي إلى هلم جرًّا، وكان حريصاً على المنصب، ولم يحجَّ حجة الإسلام خوفاً على المحراب، وكان المعظَّم قد منعه من الفتوى.

قال المصنف رحمه الله: فقلتُ له: لم مَنَعْتَه؟ فقال: ما مَنَعْتُه، وإنما منعه شيوخ مذهبه وأكابرهم، كتبوا إليَّ يقولون: هذا رجلٌ جاهل، غليظُ الطَّبْع، وفتاويه كلُّها خطأ، ولا يحلُّ لك أن تمكنه من الفتوى في الفروج والأموال.

---

(١) له ترجمة في «التكلمة» للمنذري: ٣/ ٤٨٠ـ٤٨١، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

(٣) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٤٧٧ـ٤٧٨، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤١-٤٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

وحكى [لي][1] عماد الدِّين بن موسك وجماعة من أصحاب الأشرف، قالوا: لما مَرِضَ الأشرفُ المرضَ الذي مات فيه دخل علينا في النَّيْرب والأشرفُ على خُطَّة، فقال له: طَيِّب قلبك، فقد رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المنام، وهو يقول: قُلْ لموسى: والله ما تموتُ في هذه المرضة. قال: فقُلْنا: بَشَّرك الله بالخير، فقال: إنْ مات، فارْجموني. قال عماد الدين: فمات بعد سبعة أيام، وما رجمناه. توفي رابع عشر جُمادى الأولى، ودُفِنَ بالمدرسة التي أنشأها بجيرون، [وكان قليل سماع الحديث، سمِع عمه عبد الملك بن زيد بن ياسين الدَّوْلعي، ومحمد ابن صدقَة الحراني][1]، وكان له أخٌ جاهل، فولي الخطابة بعده.

موسى بن أبي بكر، أبو الفَتْح، الملك الأشرف[2]

ولد بالقاهرة سنة ستٍّ وسبعين وخمس مئة، وكان في مبدأ أمره بالقُدْس تحت حكم ابن الزَّنْجيلي عثمان. قال [لي][1] المعظم: أنا أخذتُ له حَرَّان والرُّها والشَّرق من أبي، وجهَّزته من عندي بالخيل والعُدَّة والمماليك. وتقلبت به الأحوال حتى صار شاه أرمن، وكسر المواصلة، والرُّوم، والخوارزمي، وأخاه شهابَ الدين، وكان جَوَاداً، حسناً، عادلاً [عاقلاً][1] منجباً؛ لو كانت الدُّنيا بيده، ودفعها إلى أقلِّ النَّاس ما استكثرها له، وكان ميمونَ النَّقيبة؛ ما كسرت له رايةٌ قَطُّ، ولما أيقن بالموت أخذ بعضُ مماليكه سنجقه ليكسره، وقال: ما يحمله غيره. فقال له: لا تفعل، فوالله ما كُسِرَ قط. [وحضر مجالسي بخلاط وحران، ودمشق في ذي الحجة يوم عرفة بعد العصر بجامع التوبة الذي أنشأه، وبكى بكاء شديداً، وأعتق مماليكه وجواريه،][1] وكان عفيفاً عن المحارم، ما خلا بامرأةٍ قَطُّ إلا أن تكون زوجةً أو جارية.

قال المصنف رحمه الله: ولما صَعِدْتُ إلى خِلاط، واجتمعت به في القلعة جلسنا يوماً في منظرةٍ، فعتَبَ على أخيه المعظَّم في قضيةٍ بلغته عنه، ثم قال: والله ما مددتُ عيني إلى حُرَمِ أحدٍ؛ لا ذكرٍ ولا أُنثى، ولقد كنتُ يوماً قاعداً ها هنا في هذه الطَّيَّارة،

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٤٦٥، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤٠-٤١، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

فدخل الخادم، وقال: على الباب امرأةٌ عجوز تذكر أنها من عند بيت شاه أرمن صاحب خِلاط. فأَذِنْتُ لها، فدخلت ومعها ورقةٌ من بنت شاه أرمن صاحب خِلاط تذكر أَنَّ الحاجب علياً قد قصدها، وأخذ ضيعتها، وقَصْدُه هلاكها، وما تتجاسر أَنْ تظهر خوفاً منه. قال: فكتبتُ على الورقة بإطلاقِ القرية، ونَهْي الحاجب عنها. فقالتِ العجوز: فهي تسأل الحضورَ بين يديك، فعندها سِرٌّ ما يمكن ذكره إلا للسُّلْطان. فقلت: بسم الله. فقامت، وغابت ساعة، ثم جاءت، فدخلت ومعها امرأةٌ ما رأيتُ في الدُّنيا أحسنَ من قَدِّها، ولا أَظْرَفَ من شَكْلها، كأنَّ الشَّمْسَ تحت نِقابها. فَخَدَمَتْ ووقفتْ، فقمتُ لها لكونها بنت شاه أرمن، وقلتُ لها: أنتِ في هذه البلد، وما علمتُ بك! فَسَفَرَتْ عن وجه أضاءتْ به المنظرة. فقلتُ لها: غَطِّ وجهك، وأخبريني حالك. فقالت: أنا بنتُ شاه أرمن صاحب هذه البلاد، مات أبي، واستولى بكتمر على الممالك، وتغيَّرت الدُّول، وكان لي ضيعة أعيشُ منها، أخذها الحاجب عليّ، وما أعيش إلا من عمل النقش، وأنا ساكنة في دور الكِراء، قال: فبكيت، وَرَقَّ قلبي لها، وأمرتُ الخادم بأن يكتب لها توقيعاً بالضّيعة والوصية، وأمرتُ لها من الخزانة بقُماش، وأمرت لها بدارٍ تَصْلُحُ لسُكْناها، وقلت: بسم الله، في حِفْظ الله وَدَعتِهِ. فقالت العجوز: يا خوند، ما جاءت إلى خِدْمتك إلا حتى تحظى بك الليلة. قال: فساعةَ سمعتُ كلامها أوقعَ الله في قلبي تغيُّرَ الزَّمان، وأن يملك خِلاط غيري، وتحتاج بنتي إلى أن تقعد مثل هذه القعدة بين يديه. فقلتُ: يا عجوز، معاذ الله، والله ما هو شيمتي، ولا خلوتُ بغير محارمي، فَخُذيها وانصرفي وهي العزيزة الكريمة، ومهما كان لها من الحوائج فهذا الخادم ينفذ إليها. فقامتْ وهي تبكي، وتقول بالأرمنية: صانَ الله عاقبتك كما صنتني. قال: [فلما خرجت افتتنتني نفسي وقالت: ففي الحلال مندوحة عن الحرام، تزوَّجْها][1]، فقلتُ: ويحك يا نفس خبيثة، فأين الحياء والكرم والمروءة؟ والله لا فعلته أبداً.

وقال رحمه الله: ماتَ لي مملوكٌ بالرُّها، وخلَّف ولداً لم يكن في زمانه أحسنَ منه صورةً، ولا أظرف، وكان من لا يفهم باطن حالي يتَّهمني به، وكنتُ أحبه، وهو عندي

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

أعز من الولد، وبلغ عشرين سنة، فضرب غلاماً له، فمات، فاستغاث أولياؤه، فقلتُ: أَثْبتوا أَنَّه القاتل. فأثبتوا، وجاؤوا يطلبون الثَّأر، فاجتمعَ عليهم مماليكي وخواصي، وقالوا: نحن نعطيكم عشر دِيَات. فأَبَوْا، وقالوا: لا بُدَّ من الاستيفاء. فطردوهم، فوقفوا لي، وقالوا: قد ثَبَتَ حقُّنا. فقلتُ: سَلِّموه إليهم. فسلموه، فقتلوه، ولو طلبوا ملكي دفعته إليهم، ولكن خفت من الله أن أمنعهم حَقَّهم لغرض نفسي.

وقال المصنف رحمه الله: كنتُ عنده بخِلاط، فقدم عليه النِّظام بن أبي الحديد، ومعه نَعْلُ النَّبيِّ ﷺ، فَعَرَّفْتُه بقدومه، فقال: يحضر. فلما دخل عليه، ومعه النَّعل، قام قائماً، ونزل من الإيوان، وأخذ النَّعل، فقبَّله، ووضعه على عينيه، وبكى، وخلع على النِّظام، وأعطاه نفقة، وأجرى عليه جرايةً، وقال: تكون في الصُّحبة نتبرك به. وانفصلتُ عن خِلاط، فأقام النِّظام عنده، فبلغني أَنَّه قال: هذا النِّظام يطوف البلاد، وما يقيم عندنا، وأنا أوثر أن يكون عندي قطعة من النَّعْل أتبرك به. وعَزَمَ على أخذ قطعةٍ منه، ثم بات مفكِّراً، ورجع عن ذاك الخاطر، ولما أَخَذَ دمشق حكى لي، قال: عزمتُ على أَخْذِ قطعةٍ منه، ثم فكرتُ، فقلتُ: ربما يجيء بعدي مَنْ يفعل مِثْل فعلي، فيتسلسل الحال، ويؤدي إلى استئصاله بمرَّة، فتركتُه، وقلتُ: «مَنْ تَرَكَ شيئاً لله عَوَّضه الله خيراً منه»[1]. ثم أقام عندي النِّظام شهراً، واتَّفق أَنَّه مات، فأوصى لي بالنَّعْل، فأخذتُ النَّعْل بأَسْره.

ولما فتح دمشق اشترى دار قَيْماز النَّجْمي، وجعلها دار حديث، وتَرَكَ النَّعل فيها، ونقل إليها الكُتُبَ الثمينة، وأوقف عليها الأوقافَ الكثيرة.

ذِكْرُ ما بنى من الأماكن:

بنى مسجد أبي الدَّرْداء ـ رضي الله عنه ـ بقلعة دمشق، وَزَخْرفه، وكان عامّة مقامه فيه. والمسجد الذي عند باب النَّصر، وخان الزنجاري، ومسجد جراح بالباب الصَّغير، ومسجد القصب بالعُقَيْبة، وجامع بيت الإبر، ووقف عليها الأوقاف، وبنى بُسْتان النَّيْرب بُنْياناً عظيماً.

---

(١) أخرج نحوه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٣٩)، بإسنادٍ صحيح، ولم أقف عليه بهذا اللفظ مرفوعاً، والله أعلم.

وكان فَطِناً، ذكياً، حَسَنَ الظَّنِّ بالفقراء، يحسن إليهم ويزورهم، ويتفقدهم بالمال والأطعمة، وقضيته مع أصحاب الشيخ حياة لما بدَّدوا المُسْكر من بين يديه مشهورة، وكان يقول: وبها نُصِرْت.

وكان طول ليالي رمضان لا يغلق باب القلعة، وجِفان الحلاوات خارجة إلى الجامع، والزَّوايا، والرُّبُط، وبيت الإبر، والمِزَّة إلى أبي القاسم السعردي، وعمر الخلخال والي الجبل، وغيره، وكان إنعامه العامُّ شاملاً للخاصِّ والعام.

[ولما فارقت دمشق بسبب ما جرى في حديث القدس طلعت إلى الكرك، وأقمت عند الملك الناصر، وكنت أتردد إلى القدس ونابلس من سنة ست وعشرين[1] إلى سنة ثلاث وثلاثين، ثم جرت أسباب أوجبت قدومي إلى دمشق، فَسُرَّ بقدومي، وزارني، وأحسن إليّ، وفصل لي خلعة سنية، فامتنعت من لبسها، فقال: لا بالله، ولو ساعة، ليعلم الناس بأنك قد رضيت، وزال ما كان بيننا من الوحشة. وبعث لي بغلته الخاص، وعشرة آلاف درهم. وجلست في جامع التوبة ليلة عرفة، وحضر، وبكى، وأعتق مماليكه وجواريه، وقال لي: قد رجع الحق إلى نصابه، ومثلك يصلح أن يكون في خرائب نابلس والقدس والكرك! والله إن دمشق تغار عليك أن تكون في غيرها. وأقمنا معه من سنة ثلاث وثلاثين إلى أن توفي في سنة خمس وثلاثين وست مئة في أرغد عيش، وأحسن حال، وأهنأ بال][2].

ذِكْرُ وفاته، رحمه الله تعالى:

مرض في رجب مرضين مختلفين، [في الأعالي والأسافل، وكنت كل يوم أعوده أنا والأماثل][2]، فكان الجرائحي يُخرج العِظام من رأسه، وهو يسبِّحُ الله ويحمده، ويقدِّسه ويوحده، ثم اشتدَّ به الذَّرَب، فكان يتحاملُ إلى أَنْ غُلب، فلما يئس من نفسه قال لوزيره جمال الدين بن جرير: يا جمالَ الدِّين، في أيش تكفنوني؟ فقال: حاشاك [من ذلك][2]، فقال: دَعْني مِنْ هذا، فما بقي فيَّ قوة تحملني أكثر من نهار غد، [وتواروني][2] فقال: عندنا في الخزانة نصافي. فقال: حاشا لله أن تكفني من هذه

(١) كذا قال هنا، والصحيح أنه غادر دمشق في أواخر سنة (٦٢٧هـ)، انظر ص٣٠٥ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ش).

الخزانة [التي لا تخلو من الخيانة][1]. وكان عماد الدين بن موسك حاضراً، فقال له: قُمْ، وأحضرِ الوديعة التي لي عندك. فقام عماد الدين، ومضى، وعاد، وعلى رأسه مئزر صوف أبيض، [تلوح منه أنوار الرِّضى][1]، ففتحه، وإذا فيه خِرق الفقراء، وطاقيات الأولياء مثل الشيخ مسعود الرُّهاوي، والشيخ يونس البيطار، وعلي الفارسي، وجماعة الشيوخ، وكان في الثياب إزارٌ عتيق ما يساوي خمسة قراطيس، فقال: هذا يكون على جسدي، [أتقي به حر الوطيس][1]، فإنَّ صاحبه كان من الأبدال، [وسادات الرجال][1]، وكان حبشياً أقام بجبل الرُّها يزرع قطعةَ زعفران، يتقوَّت بها [برهة من الزمان][1]، وكنتُ أصعد إلى زيارته، وأعرض عليه المال، فيمتنع، فقلتُ له يوماً: أنا أعرض عليك الدُّنيا، ولا تقبل، فأريدُ من أثرك ما أجعله في كفني [فقال: أفعل.][1] فأعطاني هذا الإزار، [وقال][1]: قد أحرمت فيه عشرين حجة.

وكان آخر كلام الأشرف رحمه الله: لا إله إلا الله. ثم مات يوم الخميس رابع المحرم، ودفن بالقلعة، ثم نقل إلى تُرْبته بالكلاسة في جمادى الأولى[2].

ولما كان بعد موته بأيام قَدِمَ رجلٌ من أهل حَرَّان، كان له عليه في كلِّ سنة شقاق قطن ولأولاده، ومئتا دِرْهم، فجاء إلى قبره، وجعل يبكي، ويقول: كان لي عليه رسم. فقال له بعضُ الناس: هو ذا يسمعك، [فإن أراد يعطيك فهو يعطيك][1]. فانكسر قلبه، وخرج إلى السُّوق، فالتقاه تاجرٌ من أهل بلده، وقال له: كم أنتظرك، خبأتُ لك من الزكاة مئتا درهم، وشقاقاً لأولادك. وأعطاه إياها، وقال: هذه رسم في كلِّ سنة لك عليّ.

قال المصنِّف رحمه الله: وحكى لي الشيخ الفقيه أبو محمد محمد اليونيني ببَعْلَبَك في سنة خمس وأربعين [وست مئة][1] عند عودي من بغداد، قال: حكى لي فقيرٌ صالحٌ من جبل لبنان، قال: لما ماتَ الأشرف رأيتُه في المنام، وعليه ثياب خُضْر، وهو يطير بين السماء والأرض مع جماعةٍ من الأولياء، فقلت له: يا موسى أيش تعمل مع هؤلاء، وأنتَ كنتَ تفعل في الدُّنيا وتصنع؟ فالتفتَ إلي وتبسَّم، وقال: الجسدُ الذي

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) قال إبراهيم عفا الله عنه: وما زال قبره ظاهراً فيها، بالقرب من ضريح السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وليس على القبر ما يدل عليه.

كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم، والرُّوح التي كانت تحبُّ هؤلاء قد صارت معهم. فرحمه الله، ورضي عنه رضى الأبرار، وجمعنا وإياه في دار القرار.

وكان الأشرف لما أحسَّ بوفاته في آخر سنة أربعٍ وثلاثين، وكنت أغشاه في مرضه، فقلت له: استعدَّ للقاء الله، فما يضرّك. قال: لا والله بل ينفعني. ففرَّق البلاد، وأعتق مئتي مملوك وجارية، ووقف دار فَرُّخْشاه التي يقال لها: دار السَّعادة، و[بستان][1] النَّيْرب على ابنته، وأوصى لها بجميع الجواهر.

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

لما انقضى عزاؤه ركب أخوه الملك الصَّالح إسماعيل ركوبَ السَّلْطنة، وترجَّل النَّاس في ركابه، وصاحبُ حِمْص إلى جانبه، وعِزُّ الدِّين أيبك [قدامه][1] قد حمل الغاشية بين يديه، وعاد أسدُ الدِّين إلى حِمْص، وعز الدين إلى صرخد، وجاءت نجدة حلب، ووصلتِ الأخبار بوصول التتر إلى دقوقا، وصادر الصَّالح إسماعيل جماعةً من دمشق اتهمهم بالكامل، منهم العلم تعاسيف، وأولاد ابن مزهر، وابن عريف البدوي، وأخذ جميع مالهم، وحَبَسَ أولاد ابن مزهر ببُصْرى مقيَّدين، فأقاما مدة سنين، ومات أحدهما في الحبس مقيداً، وأخرج الحريريَّ من قلعة عزَّتا، ومنعه من دخول دمشق، وجاء عسكر الكامل إلى قريب دمشق، وقَسَمَ الصَّالح الأبراج على الأمراء، وحصَّنها، وغلقت أبوابها، ووصل عِزُّ الدين أيبك من صرخد، وأمر بفَتْح أبوابها ففتحت، وجاء النَّاصر داود، فنزل المِزَّة، ونزل مجير الدين وتقي الدين القابون، وأحدق العسكر بالبلد، وجاء الكامل، فنزل عند مشهد القدم، وقطع المياه عن دمشق، واشتدَّ الحصار، وغلتِ الأسعار، ونصبوا على الأبواب المجانيق، وسدُّوا الأبواب بمرَّة إلا بابَ الفرج وباب النَّصْر، ورَدَّ الكامل ماء بردى إلى ثورا، وأخرب الصَّالح العُقَيْبة والطَّواحين خراباً شنيعاً، وأحرق قَصْر حجاج، والشَّاغور، وبدَّع بظاهر المدينة، وأخربه خراباً لم يُعهد مثله، وأصبح أهل هذه الأماكن على الطرق يُكْدُون، واحترق جماعةٌ في دورهم.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

وحُكي [لي][1] أَنَّ الصَّالح [أو ابنه][1] وقف على العُقَيْبة، وقال للزَّرَّاقين: أحرقوها. فضربوها بالنَّار، وكان لرجلٍ عشر بنات، فقال لهن: اخرجن. فقلن: لا والله، النَّار ولا العار، ما نفتضح بين النَّاس. فاحترقت الدَّار وهُنَّ فيها، [فاحترقن][1] ولم يخرجن، وجرت فيها قبائح [وفضائح][1].

وزحف النَّاصر إلى باب توما، وعلَّق النقوب فيه، ولم يبق إلا فتح البلد، ثم تأخَّر إلى أرض برزة، ثم آل الأمر إلى أن أعطى الكامل لأخيه بَعْلَبَك مع بُصْرى، وتسلَّم دمشق، وكان الفلك المسيري قد حبسه الأشرف في حبس الحيات بالقلعة، فأخرجَ، ونُقِلَ الأشرف إلى الكلاسة إلى تربته، وعَبَرَ الكامل إلى القلعة.

يحيى بن هبة الله بن الحسن[2]

أبو البركات، القاضي شمس الدين ابن سني الدَّوْلة.

كان فقيهاً، إماماً، فاضلاً، نَزِهاً، عفيفاً، عادلاً، مُنصفاً، حافظاً لقوانين الشَّريعة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولي القضاء زماناً بالبيت المقدس، ثم وليه بدمشق مُدَّة، [وكان صاحبي وصديقي، يزورني، ويحضر مجالسي][1]، وكان الأشرف يحبُّه، ويثني عليه [عندي][1]، ويقول: ما ولي دمشق مثله.

توفي يوم الأحد سادس ذي القَعْدة، وصلَّى عليه ولده القاضي صدر الدين بجامع دمشق، وحمل إلى قاسيون، وكانت جنازته عظيمة، وتأسَّف النَّاس عليه. [سمع الحديث من جماعة، منهم أبو عبد الله محمد ابن صدقة الحراني، وكان له إجازة من الصائن أخي الحافظ ابن عساكر][1].

السنة السادسة والثلاثون وست مئة

فيها قَبَضَ الجوادُ على الصَّفي بن مرزوق، وأخذ منه أربع مئة ألف دينار، وحبسه في قلعة حِمْص، فأقام ثلاث سنين لا يرى الضوء. وكان ابنُ مرزوق يقيم بالجواد، ويكتب إليه الجواد: مملوكه يونس.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢، و«المذيل على الروضتين»: ٢/ ٤٤-٤٥، وفيه تتمة مصادر ترجمته.